أدوار مدرسة الحياة أو الحياة المدرسية في نظام تربوي قيد الإصلاح

المصطفى الحسناوي

تقديم :

الأنشطة الإنسانية المبنية على العيش المشترك، محكوم عليها بالإشتغال في إطار روابط وعلاقات مركبة، والنشاط التربوي بمؤسساته المتنوعة الفروع : (الأسرة – المدرسة – المحيط ...) يتأسس بدوره على علاقات تربط بين مختلف الأطراف المتداخلة والفاعلة فيه، وذلك من أجل تذليل الصعاب وتيسير سبل تقدم هذا النشاط الذي يتم في إطار ما يسمى بالحياة المدرسية.

- فما المقصود بالحياة المدرسية؟
- أهناك إشكالية في المعنى وضبابية في المغزى بالنسبة للحياة المدرسية بالمغرب؟
- ما هي السبل القمينة بجعل الحياة المدرسية حية ومفعمة بالحياة القائمة على الخلق والإبداع والبحث والإبتكار؟
- هل يعيش المتعلم (ة) اليوم حياة مدرسية شبيهة بالحياة العامة التي تتميز بالسرعة والتدفق والحيوية؟

I. مفهوم الحياة المدرسية :

تعتبر الحياة المدرسية بمثابة المناخ الذي يمكن من خلاله لكل الفاعلين المفترضين في المدرسة، العيش فيه وهم ينعمون بالسلام والأمن والتعاون والإندماج، بدء بالإدارة التربوية، مرورا بالمدرس (ة)، وصولا إلى

المتعلم (ة) الذي من حقه أن يحس بكون المدرسة لا تختلف عن البيت وعن الحي أو الدوار الذي يقطنه، إن لم نقل أفضل من كل هذه الأمكنة.

الحياة المدرسية بأدق التفاصيل، هي الحياة الإعتيادية اليومية للمتعلمين والمتعلمات، التي يعيشونها داخل الفضاءات المدرسية وفق نسق منظم، وهي بيئة منظمة تحكمها ضوابط إدارية وتربوية. وتتشكل هذه الحياة من مجموع العوامل الزمنية والمكانية والتنظيمية والعلائقية والتواصلية والثقافية والتنشيطية.[1]

و لابد للحياة المدرسية من دعامات ومرتكزات ومتدخلين وفضاءات ومرافق، وكذا مناهج وبرامج وأنشطة متنوعة وإيقاعات منظمة.

نستخلص مما سبق أن الحياة المدرسية فلسفة تربوية تهدف إلى أن تكون سيرورة متجددة قادرة على مواكبة الحراك الإجتماعي والسياسي والمستجدات المعرفية والتكنولوجية، وذلك لاعتبار المدرسة ركيزة التنشئة الاجتماعية للأفراد والجماعات، وأساس تحقيق التنمية الشاملة، من هنا تأتي أهمية إعادة الروح للمدرسة العمومية المغربية وتجديدها بشكل يناسب المفاهيم الجديدة التي أصبحت تطلق عليها : (مدرسة النجاح – المدرسة الموجهة – المدرسة المندمجة – المدرسة الحرة – المدرسة المضيافة – مدرسة الإنفتاح – المدرسة المواكبة – المدرسة النشيطة – مدرسة المستقبل – المدرسة الريادية – المدرسة الجديدة – المدرسة الجماعتية...).

II. واقع حال الحياة المدرسية ببلادنا:

إن المتتبع للشأن التربوي ببلادنا يقف أحيانا على مظاهر سلبية بفضاءات المؤسسات التربوية، أبرزها الفوضى والإرتجالية في التدبير والتسيير ببعض هذه المرافق الحيوية، مما ينم عن أزمة بنيوية تتخبط فيها هذه المؤسسات التي تعتبر مشتلا لزرع قيم المواطنة والتسامح واحترام الآخر وقبول الإختلاف، ومصنعا لصقل وتأهيل العقول البشرية التي هي أساس كل تنمية.[2]

و حسب اعتقادي فأبرز مشكل تواجهه المدرسة/الحياة التربوية حاليا يتجسد في فقدان الثقة فيها من قبل فئات عريضة من مجتمعنا إضافة إلى التطاول على مرتفقيها أحيانا، وانتهاك حرمتها و«قدسيتها» في أحايين أخرى، أما باقي الإختلالات الأخرى فبإمكان بلادنا تجاوزها، وذلك باستحضار الإرادة الوطنية وإشراك جميع الأطراف في الإصلاح ارتكازا على مقاربات شمولية تروم النهوض بأوضاع العنصر البشري أولا وأخيرا.

الحقيقة المرة أن الأطراف المتعايشة داخل مدارسنا العمومية تريد أن تقود –

بعضها – بنفسها نموذج الحياة الذي تراه مفيدا لها وخادما لطموحها، إن لم نقل لطموحات المتحكمين في دواليب التربية والتكوين : (إعادة الإنتاج الإجتماعي عل حد تعبير : «بيير بورديو»)، ولا يهمها التفاعل مع المتغيرات الإجتماعية والتطورات السياسية وإشاعة القيم النبيلة والأخلاق الحسنة التي قال بشأنها «إدغار موران» : (يجب ترسيخ الأخلاق في العقول) أو ما يصطلح عليه : «تخليق الحياة العامة».

وتظل الرتابة التي تطال فضاءات المؤسسات التعليمية نقطة سوداء فهندسة البنايات التربوية تغيب فيها الجمالية والمجالات الخضراء مما يولد النفور لدى المتعلمين، ينضاف إلى هذا كله تأزم العلاقات أحيانا وكثافة المواد الدراسية والاكتظاظ داخل الفصول الدراسية وداخل المؤسسات التعليمية ككل.

وهذه المشاكل المختلفة في جوانبها الذاتية والموضوعية تساهم في خلق نظام تربوي غير سليم لتأطير فعلي التعليم والتعلم وفي تعثر مستوى التحصيل الدراسي لدى المتعلمات والمتعلمين، الذين يتحول بعضهم إلى عناصر سلبية للمؤسسة بانفلات سلوكاتهم وتمردهم على القيم والنظم التربوية، وتحولهم إلى مشاغبين همهم الوحيد تخريب ممتلكات مرفقهم العمومي وإذاية القائمين عليه وروّاده.

III. من أجل بدائل للرفع من جودة الحياة المدرسيـــة :

إن المفهوم الجديد للمدرسة العمومية يجعل وظيفتها لا تنحصر فقط في تحصيل المعارف والسلوكات، بل تتعداه إلى ضمان القواعد الضرورية لاندماج النشء في المحيط الاجتماعي والثقافي والسياسي ... والتفاعل الإيجابي مع المكتسبات الدستورية ببلادنا.

و هنا لابد من اعتماد مقاربة العمل بمشروع المؤسسة كآلية ناجعة لتجاوز مشاكل الحياة التربوية ولتحسين جودة التربية والتكوين بها، فالعمل ببيداغوجيا/ مقاربة المشروع تشخيصا وتخطيطا وتنفيذا وتتبعا قمين بتفعيل أدوار الحياة المدرسية والرقي بها إلى مصاف الفضاءات التربوية الجذابة التي تستجيب لحاجات وميولات المتعلمات والمتلعمين (التعلم – التربية – الأمن – اللعب – حب الإستطلاع – تأكيد الذات – الحرية والإستقلالية ...).

ومع هبوب رياح العولمة وظهور مفاهيم تربوية جديدة من قبيل : (التعاقد – المشروع – الميثاق – السلوك المدني – حقوق الطفل – الحق والواجب ...)، بات من الضروري دمقرطة العقد التربوي داخل مؤسستنا التربوية وتحصينها من كل أشكال التعصب والتطرف والانحراف، وذلك باعتماد مقاربات تربوية عمادها تشريب الناشئة مبادئ التربية على حقوق

الإنسان والتربية على المواطنة والسلوك المدني، واحترام ثوابت الهوية الوطنية، زيادة على أهمية تنويع أمكنة التعلم لتحقيق التكامل بين الفعل التعليمي والفعل التربوي واحترام الفوارق الموجودة بين المتعلمين، لأن «المدرسة الواحدة تساوي مدرسة منقسمة على نفسها ...» على حد تعبير كل من : «بودلو» و«استبليت»، دون إغفال اعتماد ثقافة التشارك في تدبير شؤون المنظمة/المؤسسة التربوية، وتشجيع التنافسية نحو الأفضل وإشاعة ثقافة الإنصاف والإعتراف والتكريم في مقابل تفعيل القوانين : (النظام الداخلي للمؤسسة – ميثاق القسم – التعاقد البيداغوجي ...) الرامية إلى خلق الإلتزام بالواجبات إلى جانب المطالبة بالحقوق.

إن العلاقة التربوية تعامل وتفاعل إنساني يتم بين أفراد يوجدون في وضعية جماعة كما قال : «جون كلود فليو» لذلك على المسؤولين التربويين وجميع الشركاء العمل على ترسيخ الممارسة الديمقراطية في الفضاءات التعليمية والتكوينية والتدبيرية، سواء في الفصل الدراسي أو في مجالس المؤسسات التربوية، وذلك لكون استمرارية توطيد البناء الديمقراطي ببلادنا، بقدر ما تتم من خلال الإصلاحات الجارية، بقدر ما تقع على عاتق نخب الغد، التي تمثلها الناشئة المتعلمة اليوم.[3]

بناء على ما سبق يتبين أن الحياة المدرسية هي الركيزة الأساس في أي إصلاح تربوي مرتقب، لاعتبارها قاعدة تشكيل وبناء منظومة القيم والهوية المشتركة لأفراد المجتمع.

من هذا المنطلق يبدو أن الإصلاح التربوي الصحيح، الذي يستطيع الصمود والاستمرارية حتى تحقيق الغايات المجتمعية المنشودة، هو الذي ينطلق من تحت، بمعنى آخر هو الذي ينطلق من الواقع المعيش الذي تعرفه المؤسسات التعليمية، ولن يتأتى ذلك ما لم نأخذ بعين الإعتبار مكونات فضاءات المدرسة.[4]

في إطار الرجات والثورات الهادئة والعنيفة التي يعرفها العالم العربي في إطار ما يسمى بربيع الحرية أو "الربيع الديمقراطي"، أضحى أكثر من أي وقت مضى وضع تصور متكامل الأبعاد للحياة المدرسية ببلادنا، وذلك بتفعيل أمثل لمختلف مضامين الأوراش الإصلاحية لمنظومتنا التربوية، بغية جعل مدرستنا العمومية/الشعبية مدرسة وطنية جديدة مفعمة بالحياة ومنبعا للعطاء وفضاء للإبداع. نتمنى ألا نخلف موعدنا مع الإصلاح ومع التاريخ، كما نتمنى أن تتضافر كل الجهود لإعادة الهيبة لمدارسنا وللعاملين بها، وللحد من كل الإختلالات ومتاهات الأزمة التي يتخبط فيها نظام التربية والتكوين ببلادنا.

الهوامش

1. ذ. إبراهيم الباعمراني: (الحياة المدرسية ودمقرطة الفضاء التربوي بين التصور والواقع)، جريدة: "المنعطف – المنعطف التربوي" العدد: 3761، "الأربعاء: 30 – 06 – 2010"، ص: 6.
2. د. أحمد أوزي: (من تقديم العدد: 45 من مجلة علوم التربية) – أكتوبر 2010 – ص:6.
3. ذ. عبد اللطيف المودني: (الإصلاح التربوي وأوراش مدرسة المستقبل) جريدة: "علوم التربية" – العدد: 45 (30 – 06 – 2010) ص: 9 – 10.
4. ذ. رشيد الخديمي: (الحياة المدرسية بين التصور والممارسة) جريدة: "الإتحاد الإشتراكي – الملف التربوية –" العدد: 9769 (الخميس: 28/04/2011)، ص: 9.